فى الحـــب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

الكلام فى الحب يحلو للعاشق والسالى والخلى ؛ وأنا والله « لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، وقد كنت أتوهم أنى عشقت بضع مئات من المرات فى حياتى مذ عرفت أن لى قلباً وأن مكانه فى الناحية اليسرى لا اليمنى . ولهذه المعرفة قيمتها عندى ، فقد خيل إلى فى صدر أيامى أنى أحب فتاة وأفضيت إليها يوماً — أو على الأصح ليلة وكان القمر طالعاً والجو سجسجاً — بما يجن صدرى ، وأردت أن أؤكد لها الحب فأشرت إلى حيث التضلوع فى الجانب الأيمن ، وكانت أعرف منى بتركيب الجسم الانسانى ، فضحكت وقالت : « هل أنت واثق مما تقول ؟.. » فلم أفهم معنى لسؤالها وظننتها تريد أن تعاهدنى على الحب والحفاظ وما إلى ذلك من الكلام الفارغ — أو الذى صرت أعتقد أنه فارغ — فوضعت كفها الرخصة على حيث أشرت لها إلى موضع قلبى وقالت : « مسكين هذا القلب !.. » فتناولت يدها وقبلتها وقلت على سبيل التأييد : « إى والله . . مسكين . . » فسألتنى : « وما العمل الآن ؟ . . » فقلت : « فى أى شىء ؟ » قالت : « أليس الواجب أن نبدأ بقلبك فنرده إلى مكانه الذى حوله الحب عنه ؟ » قلت : « كيف ؟ . ماذا تعنين ؟ » قالت : « إن قلوب الناس هنا .. إلى اليسار .. ولكن قلبك قد وثب وثبة نقلته إلى اليمين ؛ وهذا — فيما أظن — يجب أن يستعان على إصلاحه بالجراح . . وإلى أن يتم ذلك . . . »

فلم أدعها تتم كلامها ووليت هارباً . وخطر لى بعد ذلك أنه إذا كان القلب فى غير الموضع الذى حسبته فيه فأن ما توهمته من إحساسه — أو بعبارة أدق — من الاحساس فى ذلك الموضع لابد أن يكون تخيلاً لاحقيقة له . وكانت هذه مغالطة ، فليس من الضرورى أن يعرف الانسان موضع قلبه ليحب ، ولكن المغالطة نفعتنى وشفتنى من هذا البلاء

وأنا لا أعشق بالمعنى المألوف لأنى شديد النسيان سريعه . والنسيان يجعلنى أمسى عاشقاً ، وأصبح سالياً . وكثيراً ما حدث أنى عشقت ، ولكن الليل يجىء فأجوع — ولا سيما فى الشتاء — فآكل فيغلبنى النعاس — والامتلاء يساعد عليه — وأنهض فى الصباح فيخطر لى شىء ساعة أفتح عينى على الدنيا فأشغل بذلك عما عداه وأفرغ من هذا الأمر الجديد فى العصر أو بعد يوم أو اثنين ؛ فأقعد أفكر فيما مر بى فى يومى ، أو فى الأيام الأخيرة ، وإذا بى أتذكر فجأة أنى عشقت فأقول : « أوووووه ... أعوذ بالله ! ما هذا النسيان الفظيع ؟ ألا شدّ ما أذهلتنى الحياة عن حبيبتى التى لا شك أنها تحسبنى الآن أحيى الليل ساهراً أناجيها ... كلا ، ينبغى أن أكتم هذا لئلا تغضب ؛ وليس من اللائق على كل حال أن أخبرها أنى كنت ناسياً أنى عاشق مدنف . . . ولكن من هى الحبيبة ؟ . لقد ذكرت حبها ولكنى والله نسيتها هى . . » وأحار ماذا أصنع . . . فليس من المعقول أن أسأل من أعرف من الفتيات أهى التى أحبها أم سواها . ويعجبنى هذا الموقف فأتصور أنى أقبلت على واحدة وفركت كفى وقلت لها : « هل تسمحين لى أن ألقى عليك سؤالاً عنى ؟ « فتقول » تفضل . . بالطبع . . لم لا ؟ . » فأقول : « إن المسألة بسيطة ! ! . . أعنى أنها فى الحقيقة دقيقة . . والمفروض أنى أعرف بها ولكنى كما تعرفين حمار . فتقول : « استغفر الله ! . لماذا تطعن على نفسك هكذا ؟ . » فأقول : « معذرة . . وأشكر لك هذا اللطف ولكنها الحقيقة . . على كل حال لقد تبينت من كلامك . . أعنى . . أريد أن أقول إن كلامك الذى سمعته أغنانى عن السؤال فألف شكر لك يا روحى ونور عينى وحبة قلبى و . . . »

فتقاطعنى وتصيح بى : « ماذا جرى لك ؟.. لماذا تتكلم هكذا ..؟ »

فأقول : « معذرة ... ولكن ألست أنت روحى ونور عينى وحبة قلبى ... لقد ظننتك ... »

فتسأل وهى مقطبة : « هل جننت ... ؟ »

فأقول : « لا ... لم أجن ... ولكنى نسيت ... »

فتقول وهى كالمذهولة : « نسيت !.. ماذا نسيت ..؟ »

فأقول : « اسمى ... لم يبق بد من الاقرار بالحقيقة ... إنى أحب ، ولكنى نسيت ولم أعد أعرف من هى التى سرقت قلبى ، وقد كانت نيتى حين ربكتنى بالقاطعة أن أسألك أأنت التى أحبها ،

أم أنا قد غلطت ؟ ... فلما أظهرت هذا العطف على وأغضبك أنى أطعن على نفسى ، قلت إنك لا بد أن تكونى المحبوبة الضائعة — أعنى المنسية — فان لم تكونيها فأنت لا شك أولى منها بحبى ... وهذا هو تأويل قولى : ياروحى يانور عينى وحبة قلبى .. فما رأيك ؟ »

أتصور هذا الموقف فلا يسعنى إلا أن أضحك . ومتى ضحك المرء فقد سلا وخلا قلبه من الوجع . ولو أن كل عاشق استطاع أن يضحك لكان الأرجح ألا يبقى فى الدنيا حب عنيف طاغ

ولا أحتاج أن أقول إنى فى الحب كما تشاء ذاكرتى ؛ فاذا استيقظت وتنبهت ، ووسعها أن ترتب ما فيها ، وتبرز ما يستحق الابراز ، وتؤخر ما التأخير أولى به ، وتعرض الأمر على عرضاً يساعد على التدبر ولا يغرى بالفرار والتماس النجاة ... إذا فعلت ذاكرتى هذا فأنى أستطيع أن أعرف أأنا عاشق أم خلى ، ومن هى التى أحببتها ، أو من هن اللواتى أحببتهن ثم نسيتهن ؟ ولا غرابة إذن أن يكون حبى — حين أفطن اليه — بالجملة . أما إذا عجزت ذاكرتى عن هذا العرض فأنى أمشى فى الدنيا مستريح القلب من هم الحب وكربه ، واثقاً من نعمة الخلو ومزية السلامة والنجاة

ولكن البلاء والداء العياء أن ذاكرتى تفاجئنى بومضات التذكر حين تحسن اللجاجة فى النسيان ... وتصور أن تكون جالساً تناجى من تذكرت أنك تحبها ، وأن تكون راغباً فى ملاطفتها لتعوضها من الاساءة إليها بنسيان أمرها ، فتروح تبثها هذا الحب وتناجيها بأعذب ما تستطيع من عبارات الشغف والهيام ، وتؤكد لها أنك ما أحببت ... كلا ، ولن تحب سواها ، وأن قلبك وقف عليها ، وأن حبك لها خالد ، وأن الدنيا تستطيع أن تعمر بمن شاءت من النساء الحيلات الفاتنات الساحرات ؛ ولكنك أنت لن تكون لك عين ترى سواها ، أو قلب يخفق لغيرها ... وإنك لتسح بهذا الكلام وإذا بذاكرتك تصيح بك :

« حاسب ... ماذا تقول ؟ ... أتزعم أنك لا تحب سواها ؟ بوه ... أتراك نسيت تلك التى كنت تقسم لها مثل هذه الأيمان الفلاط البارحة ... البارحة فقط ... فى الساعة التاسعة ... على شاطئ النيل ... أو تلك التى دعوتها إلى الذهاب معك إلى الاسكندرية لأنك لا تطيق البعد عنها يوماً واحداً ... أو الأخرى ... أو ... أو ... »

وأرجو أن يكون القارئ منصفاً ، وأن يقول لى كيف بالله يمكن أن يمضى المرء فى الكلام الذى بدأه ؟ ... أو كيف يستطيع أن يستحلى ما هو فيه ؟ ... أو ماذا يبلغ من شعوره بالتغيض فى لحظة جميلة كالتى هو فيها ؟ ... ثم إن هذه سماحة من الذاكرة .. لماذا لا تنتظر حتى تنقضى اللحظة الحلوة ، ويفوز المرء بالمتعة — متعة الجلسة والحديث والمناجاة وسرور المحبوبة بأنها محبوبة ثم بعد ذلك — بعد أن تنقضى الساعة التى هو فيها لا يبقى مانع من أن تذكره عا شاءت ، وأن تعرض عليه الحقائق الثقيلة فى غير أوانها

فماذا أصنع بالله ... وكيف أستطيع أن أحب ما ينبغى ... وهل مما يستظرف أن تعابثنى ذاكرتى معابثة تحرمنى لذة الحب فى دنيا تزخر بالجمال ؟ ... وماذا عسى أن أقول للغانيات ؟ ... والله إن هذه لحيرة وأى حيرة ، ثم والله إنى لمستريح مسكين

ابراهيم عبد القادر المازنى

لجنة التأليف والترجمة والنشر

قصة الفلسفة الحديثة

تصنيف

أحمد أمين ، زكى نجيب محمود

أتمت لجنة التأليف طبع هذا الكتاب وهو الحلقة الثانية لقصة الفلسفة اليونانية ، وقد ترجم لأشهر الفلاسفة من عصر القرون الوسطى إلى اليوم وبين فلسفتهم فى أسلوب واضح

وقد حلى بصور الفلاسفة وهو فى جزءين يقعان فى نحو ٦٥٠ صفحة وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد

ويطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة